إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الثانية – العدد الثامن – شتاء ١٣٩١ش/كانون الأول ٢٠١٢م
صص ١٦٣ ـ ١٧٩

التناص في قصيدة «قل للدّيار» لجرير مع قصيدة «خفّ القطين» للأخطل

علی نظری*
یونس ولیئی**

الملخص

تعـدّدت الدراسـات النقدية في الأدب المعاصـر ونظرية التناص مـن أبرزها. وهو مصطلـح نقدی حديث وافد مـن الغرب إلى العالم العربی، وله أنـواع متعدّدة ومنها: التنـاص الأدبی وهو تداخل نصوص أدبية سـابقة مع النـص الأدبی اللاحق. وهذا النـوع من التناص يبرز بـروزاً واضحاً جلياً فی النقائض. وهـذا البحث يحاول أن يعالج التناص الأدبی فی قصيدة "قل للدّيار" لجرير – وهی من النقائض – مع قصيدة "خفّ القطين" للأخطل. ويهدف إلى إظهار حوار القصيدتين وتعالقهما وتداخلهما عبر التناص المضمونی والشـكلی. ونری من خلال دراستنا أن التناص قد برز فی قصيدة جرير فی نوعيه الشكلی والمضمونی بروزاً واضحاً.

الكلمات الدليلية: التناص الأدبی، التناص المضمونی، التناص الشـكلی، جرير، الأخطل.

*. جامعة لرستان، خرم آباد، إيران. (أستاذ مشارک). alinazary2002@gmail.com
**. جامعة لرستان، خرم آباد، إيران. (طالب مرحلة الدكتوراه).
التنقيح والمراجعة اللغوية: د. هادی نظری منظم
تاريخ الوصول: ١٣٩١/٣/١هـ. ش تاريخ القبول: ١٣٩١/١٠/١٤هـ. ش

المقدمة

النقائض فن شعرى نشأ فى العصر الجاهلى واستمر إلى العصر الأموى وبلغت ذروتها فى ذلك العصر على أيدى الشعراء الثلاثة (الفرزدق، وجرير، والأخطل) بسبب الصراع العنيف بين الأحزاب السياسية وإيقاد نار العصبية بين القبائل، وهى: «أن يتّجه شاعر إلى آخر بقصيدة هاجياً أو مفتخراً فيعمد الآخر إلى الرّدّ عليه هاجياً ومفتخراً ملتزماً البحر والقافية والرّوى الذى اختاره الأول.» (الشّايب، ١٣٧١ق: ٣)

وإذا كان التناص بمعنى حوار النصوص وتداخلهما، على حسب ما جاء فى تعريف النقائض، تقع النقائض فى صلب التناص. لأن أصحاب النقائض كانوا يأخذون كثيرا من معانى الشاعر الأول ويغيرون توظيفها باستخدام بعضها لصالحهم ونقض بعضها وردّها إلى الشاعر الأول. وفى هذه المقالة نتطرّق إلى التناص الأدبى فى النقائض؛ واخترنا للدراسة القصيدتين الشهيرتين من النقائض وهما قصيدة "قل للديار" لجرير وقصيدة "خفّ القطين" للأخطل. ويتناول بحثنا هذا فى الابتداء نشأة التناص ومفهومه، وبعده يتطرّق إلى التناص المضمونى ثمّ التناص الشكلى فى قصيدة جرير. من حيث إنّ الأخطل هو البادئ وقصيدته أقدم من قصيدة جرير فإننا سنتخذ قصيدته أصلاً نقيس عليه نقيضة جرير فى الأشكال والمضامين.

مع أن دراسات عديدة أجريت فى ظاهرة التناص لكن أكثرها حول التناص القرآنى أو الدينى والقليل منها تطرّق إلى التناص الأدبى. ومع هذا الكثير من الدراسات فى التناص الأدبى قد وقع فى شعر التفعيلة دون الشعر العمودى خاصة النقائض. ومن هنا يمكننا القول إن دراستنا هذه تتصف بالجدّة فى مجاله.

وفى أهميتها نتذكر كلام رحاب الخطيب: تعد المقاربة التناصية إحدى الأدوات الحيوية والمنافذ الحية لدراسة النص الشعرى. فهى مفتاح لقراءة النص وتحليله وتفكيكه وإعادة بنائه. (الخطيب، ٢٠٠٥م: ١٢)

نشأة التناص ومفهومه

وهناك إجماع نقدى على أنّ جوليا كريستيفا البلغارية التى تحمل الجنسية الفرنسية هى أول من وضع مصطلح (التناص lintertextualite) عام ١٩٦٦م منطلقة من

مفهــوم الحوارية عند باختين الروســی، لكن بعض النقاد العــرب يترجم المصطلح إلی التناصية وهم يضعون التناص فی مقابلة كلمة (intertext) الفرنسية.

كريستيفا نفسها قد تخلّت عن مصطلح التّناصّ فی عام ١٩٨٥م، وآثرت عليه مصطلحاً آخر هو التنقّلية، إذ تقول: إن هذا المصطلح التّناصّية الذی فهم غالباً بالمعنی المبتذل لنقد الينابيع فی نصّ ما، نفضل عليه مصطلح التنقّلية. (عزّام، ٢٠٠١م: ٢٩)

تعدّدت مفاهيم التناص ودلالاتــه وقدّمت تعاريف كثيرة للتناص من زوايا مختلفة. والجدير بالذكر أنّ مفهوم التناص ليس جديداً فی الدراســات البلاغية والنقدية العربية والغربية، فقد ورد تحت تســميات مختلفة كالاقتباس، والتضمين، والســرقات الشعرية، والتلميح، والإشــارة و... . لكن مفهوم التناص احتواها وتجاوزها ووســع آفاقها. وقد تعددت تعريفات مصطلح التناص عند النقاد، والآن نذكر عدة منها:

التناص عند كريســتيفا هو ذلــک (التقاطع داخل نص لتعبــير مأخوذ من نصوص أخری) وتقول التناصية هی أن يتشــكل كل نص من قطعة موزاييک من الشواهد وكل نص هو امتصاص لنص آخر أو تحويل عنه.» (المناصرة، ٢٠٠٦م: ١٣٩)

«التنــاص هو تعالق (الدخول فی العلاقة) نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة.» (مفتاح، ١٩٩٢م: ١٢١)

«الطريقة التی يتماس بها النص مع نصوص أخری سابقة؛ أو وضع النصوص السابقة بطريقة أخری فی النص؛ أو كيف تطعّم النصوص وتتصل بنصوص أخری.» (محمد شبل، ٢٠٠٩م: ٧٥)

إن النص كدليل لغوی معقد، أو كلغة معزولة شبكة فيها عدة نصوص، فلا نص يوجد خارج النصوص الأخری أو يمكن أن ينفصل عن كوكبها، وهذه النصوص الأخری هی ما سميته بالنص الغائب غير أن النصوص الأخری المستعادة فی النص تتبع مسار التبدل والتحول.» (بنيس، ١٩٩٨م: ٨٥)

«كلّ نــص يتعايش بطريقة مــن الطرق مع نصوص أخری. وبذا يصبح نصاً فی نص، تناص.» (الخطيب، ٢٠٠٥م: ١١٣)

«التّناصّ تشــكيل نصّ جديد من نصوص ســابقة أو معاصــرة، بحيث يغدو النّص

المتناصّ خلاصة لعدد من النصوص التى تمحى الحدود بينها، وأعيدت صياغتها بشــكل جديد، بحيث لم يبق من النصوص السابقة سوى مادتها. غاب الأصل فلا يدركه إلا ذوو الخبرة والمران.» (عزّام، ٢٠٠١م: ٢٩)

أنواع التناص

يحدث التناص فى نوعين أساسيين وإن تعددت تسميات، نوع يعود إلى الشكل وهو ما سماه محمد مفتاح بالتناص الخارجى. (مفتاح، ١٩٩٢م: ١٢٤) وسمته عزة محمد شــبل بالتناص المباشــر. (محمد شبل، ٢٠٠٩م: ٧٩) وسماه حسام أحمد فرج بالتناص الشكلى. (أحمد فرج، ٢٠٠٣ م: ١٩٩) وهو اجتزاء قطعة من النص أو النصوص السابقة ووضعها فى النــص الجديد بعــد توطئة لها مناســبة تجعلها تتلاءم مع الموقــف الاتصالى الجديد وموضوع النص. وهو الشــكل البسيط الذى يتحقق بنقل التعبير. (محمد شبل، ٢٠٠٩م: ٧٩)

ونــوع يعود إلى المضمون وهو ما سمى بالتنــاص الداخلى. (مفتاح، ١٩٩٢م: ١١٤) وبالتناص غير المباشــر. (محمد شــبل، ٢٠٠٩م: ٧٩) وبالتناص المضمونى. (أحمد فرج، ٢٠٠٣م: ١٩٩) وهو الذى يســتنبط من النص اســتنباطاً ويرجع إلى تناص الأفكار أو المقروء الثقافى أو الذاكرة التاريخية التى تستحضر تناصها بروحها أو بمعناها لا بحرفيتها أو لغتها وتفهم من تلميحات النص وإيماءاته وشــفراته وترميزاته. (محمد شبل، ٢٠٠٩م: ٨٠)

مصادر التناص

١. المصادر الضرورية: ويكون فيها التأثر طبيعيا وتلقائيا وهو مايســمى بالذاكرة أو الموروث العام كتقيد الشــاعر غير الواعى بالضرورة بحدود ثقافة توافرت له فى إعداده وتعليمه.

٢. المصادر الداخلية: وتشير إلى التناص الواقع فى نتاج الشاعر نفسه وهو الإتيان بجزء من نص سابق له فى نص جديد.

٣. المصــادر الطوعية: وهى اختيارية وهى ما يطلبه الكاتب من نصوص متزامنة أو

سابقة عليه ويستدخدمها الكاتب للدلالة على ذاتها. (محمد شبل، ٢٠٠٩م: ٧٦)

قال محمد المفتاح فى أهمية التناص إنه بمثابة الهواء والماء والزمان والمكان للإنسان فلا حياة له بدونهما ولا عيشة له فى خارجهما. (مفتاح، ١٩٩٢م: ١٢٥) وقالت عزة شبل محمد إن التناص ضرورة لربط العمل الأدبى بالحياة عبر الاستعانة بالنصوص الأخرى الحية سواء انتمت لعمل أدبى أو أسطورى أو دينى. فالتناص يجعل النص الجديد الذى يستعين به نصّا مألوفا من ناحية وثريا باستجلاب عوالم أخرى إلى عالمه لتصير عناصره التكوينية فى صلة ذات دلالات جديدة. (محمد شبل، ٢٠٠٩م: ٧٧)

التناص فى القصيدتين

قبل التطرق إلى التناص فى القصيدتين الأفضل أن ندرس هيكل القصيدتين:

يستهلّ الأخطل قصيدته بالنسيب من البيت ١ حتى ١٧. ثم يتخلّص إلى المدح فيمدح الخليفة وقومه من البيت ١٨ حتى ٤٤. وبعد ذلك يبدأ بالفخر، و الفخر عند الأخطل ضئيل ٤٥–٥٧. وينهى القصيدة بهجاء القيسيين وأحلافهم وهجاء بنى كليب ٥٨– ٨٥.

جرير يبدأ قصيدته بالنسيب ١–١٦. ثمّ يتخلص إلى الفخر ويمزج الفخر بالهجاء بحيث لايمكن تحديدها فى أبيات متوالية ١٧–٧٤. كما رأينا تشترک القصيدتان فى المطلع وهو النسيب وفى غرضى الفخر والهجاء، وتختلفان من جهة واحدة وهى وجود المدح فى قصيدة الأخطل وعدمه فى قصيدة جرير.

كما جاء فى تعريف النقائض الشاعر الثانى يلتزم البحر والقافية والرّوى الذى اختاره الشاعر الأول. لذا تشترک القصيدتان فى البحر العروضى وهو بحر البسيط:

خف فل ق طى/نُ ف را/حومن ک أو/ ب ک رو

وأز عَ جت/هم ن ون/فى صر ف ها/غ ى رو

مستفعلن / فعلن / مستفعلن / فعلن   متفعلن / فاعلن / مستفعلن / فعلن

قل لد د يا / ر س قى / أط لا ل كل / م ط رو

قد هج ت شو/ قن وما / ذا تن ف عل / ذ ک رو

مستفعلن / فعلن / مستفعلن / فعلن   مستفعلن / فاعلن / مستفعلن / فعلن

وتشترک القصيدتان فی القافية وحرف الروی وهو حرف الراء المضمومة فی کلتيهما.

۱. التناص المضمونی بين القصيدتين:

فی *النسيب*: لقد تضمنت قصيدة جرير معانی متعددة من قصيدة الأخطل فی النسيب وسببه يعود إلی اختلاف الموقف الإبداعی بين الشاعرين، فالشاعر الأول له حرية اختيار الموضوع والوزن والقافية والمعانی. أما الشاعر الثانی فهو مقيد بالموضوع الذی فرض عليه ومقيد بحدود الوزن والقافية المستعملين عند الشاعر الأول. وإنّما الشاعر الأول له ما شاء من الوقت، أمّا الشاعر الثانی عليه أن يردّ علی الأول قبل فوات الوقت.

وقد قال جرير فی رحلة الأحبّة:

نادی المنادی ببين الحی فابتكروا   منّا بكروا فما ارتابوا وما انتظروا

وهذا المعنی يتناص مع معنی البيت التالی من قصيدة الأخطل فی رحلة الأحبة:

خفّ القطين فراحوا منک أو بكروا   وأزعجتهم نوی فی صرفها غير

ونری اختلافا بين الشاعرين فی ذكر الرحيل وهو أنّ جريرا قد تنبّه علی وقت الرحيل، واستخدم الجملة خبرية وقال: «بكروا فما ارتابوا» ولكن الأخطل كان متسائلا عن زمن الرحيل، واستخدم الجملة إنشائية قائلا: «فراحوا منک أو بكروا».

وقد قال جرير فی حزنه إثر نزوح الحی:

قالوا لعلک محزون فقلت لهم   خلوا الملامة لا شكوی ولا عذر

كما وصف الأخطل حزنه إثر نزوح الحی فی البيت:

فالعين عانية بالماء تسفحه   من نية فی تلاقی أهلها ضرر

ويبدو أن جريرا لم يظهر حزنه أمام أصدقائه بعد الرحيل وهم كانوا مترددين فی حزنه. ويدلّ علی هذا استخدام كلمة "لعلّ" فی قوله «قالوا لعلک محزون». لكن الأخطل ما استطاع إخفاء حزنه بعد الرحيل وأظهره بالبكاء، حيث يقول: «فالعين عانية بالماء

تسفحه».

وفى متابعة الظعائن قال جرير:

إنّ الفؤاد مع الظعن التى بكرت　　　من ذى طلوح وحالت دونها الضهر

وقال الأخطل فى متابعته الظعائن:

شـوقا إليهم ووجدا يـوم أتبعهم　　　طـرفى ومنهـم بجنبى كوكـب زمر

نـرى أن جريرا بعد رحلة الظعائن وقف فى مكانـه ونظر إليهن من بعيد وما تابعهن بعد أن اختفن خلف الكثبان وأما هذا الوقوف وعدم المتابعة فليس بمنزلة نسيانه إياهنّ، وكما قال فؤاده مع الظعائن حتى بعد أن ابتعدن عنه بحيث لايسـتطيع أن يراهنّ. ولكن الأخطل من جرّاء الشوق الذى يعانيه لظعائن الأحبة لم يستطع أن يقف فى مكانه و وقد اقتفى أثرهم بنظره.

وقال جرير فى زمن النزوح وصعوباته:

أبصرن أن ظهـور الأرض هائجة　　　وقلص الرطب إلا أن يرى السرر

فى هذا البيت أتى التناص مع بيت الأخطل التالى:

شـرقن إذا عصر العيدان بارحها　　　وأيبسـت غير مجرى السنة الخضر

يـرى المتتبع لهذه القصيدة أن جريرا قال إن الأحبة رحلوا فى زمن يبسـت الأرض وأصيبـت بالمحل والجدب، كمـا قال الأخطل إن الأحبة رحلن واتجهن شـرقا فى زمن تجفّفت الريح الباردة الأرض والكلأ ولم يبق نبات واضمحل الخضر إلا فى مجرى السكة.

وفى وصف قافلة الأحبة قال جرير:

إن الخليـط أجدّ البـين يوم غدوا　　　من دارة الجأب إذ أحداجهم زمر

وفى هذا البيت تناص مع قول الأخطل فى وصف قافلة الأحبة:

شـوقا إليهم ووجدا يـوم أتبعهم　　　طـرفى ومنهـم بجنبى كوكـب زمر

وكلا الشاعرين قدوصفا الأحبة بجماعات حين نزوحهم، وقدقال جرير إنهم جماعات

يوم ابتكروا وأسرعوا فی الزيال، كما قال الأخطل إنهم جماعات عندما يجتازون موضع كوكب. فی هذا البيت استخدم جرير نفس القافية التی استخدمها الأخطل.

فی الفخر و الهجاء: نری أن جريرا قد ضمّن فی فخره وهجائه معانی متعددة استخدمها الأخطل فی شعره من قبل.إذ هجا جرير نسوان تغلب بالقول:

نســوان تغلب لا حلم ولا حسب   ولا جمــال ولا ديــن ولا خفــر

ويستمر التناص فی هذا البيت مع بيت الأخطل:

قــوم أنابــت إليهــم كل مخزيــة   وكل فاحشــة ســبت بهــا مضــر

نری الســمة الإسلامية فی شعر جرير فی قوله "لا دين"، حيث عير جرير نساء تغلب بنصرانيتهنّ. وبين أســلوب الشــاعرين فی هجو النساء اختلاف، وهو أن الأخطل نسب إلی نساء كليب الرذائل ولكن جرير نفی عن نساء تغلب الفضائل.

نسب جرير اللؤم إلی التغلبيين حيث يقول:

يــا خزر تغلب إن اللــؤم حالفكم   مــادام فی مارديــن الزيت يعتصر

يتناص هذا البيت مع قول الأخطل فی لئامة كليب:

واقســم المجــد حقــاً لا يحالفهم   حــتی يحالف بطن الراحة الشــعر

وشبه جرير اللؤم بإنسان ثمّ حذف المشبّه به وأتی بفعل من أفعاله وهو فعل "حالف" علی سبيل الاستعارة المكنية، كما قبله شبّه الأخطل المجد بإنسان، ثمّ حذف المشبه به، وأبقــی فعلا من أفعاله يدلّ عليه وهو فعل "حالــف"، لكن بينهما اختلاف وهو أن جملة جرير إيجابية وأما الأخطل فجملته منفية. ونری أن جريرا فی شطره الثانی تابع أسلوب الأخطل فی شطره الثانی وهو الاتيان بمعنی حسی يفيد استمرار المعنی فی الشطر الأول.

وصف جرير التغلبيين بقلة الشأن والمقام، حيث يقول:

والتغلــبی إذا تمــت مروءتــه   عبد يســوق ركاب القــوم مؤتجر

وفی هذا البيت التناص مع بيت الأخطل:

صفر اللحى من وقود الأدخنات إذا ردّ الرفـاد وكـفّ الحالـب القرر

ونـرى أن جريراً نفى عن الأخطل علو المقام ونسـب إليه الدناءة والذلّة بالقول إنه عبد مأجور يسـتخدم لأداء أمور آخرين، كما قبله وصف الأخطل التغلبيين بقلّة الشأن والمقـام بالقول إنهـم رقيق قد اصفرّت لحاهم لكثرة ما يسـتخدمون ليوقدوا النار أيام الصقيع.

افتخر جرير بقبيلة قيس:

قيس وخندف أهـل المجد قبلكم لسـتم إليهـم ولا أنتم لهـم خطر

وأتى التناص عند الشاعر بالتأثر من قول الأخطل:

ومـا سـعى فيهـم سـاع ليدركنا إلا تقاصـر عنّـا وهـو منبهـر

وقال الأخطل إنّ بونا شاسعا بين مقام تغلب ومقام قيس بحيث إنهم لايستطيعون أن يصلوا إلى مقام تغلب ولايلحقون بهم حتى تتقطع أنفاسهم، ثمّ جاء جرير وقابل الأخطل فى هجائه بالقول إن القيسيين هم أهل المجد ولهم فضل على التغلبيين وهم لايعدّون شيئا.

وقال جرير فى الدفاع عن قيس:

يـا ابـن الخبيثـة من عدلـت بنا أم من جعلت إلى قيس إذا زخروا

وفى هذا البيت حدث التناص مع بيت الأخطل:

ضجوا من الحرب إذ عضّت غواربهم وقيس عيلان من أخلاقها الضجر

ونسـب الأخطل فى هذا البيت إلى التغلبيين الجبن عـن القتال وقال إنهم لايطيقون القتال عندما يحتدم ويشتدّ عليهم، وإنهم يتضجرون أمام المشقات والصعوبات ثمّ جاء جرير مدافعا عن قيس، وقال من يسـتطيع أن يقابل القيسيين ويواجههم عندما جاشوا فى الحرب. والاستفهام فى بيت جرير يفيد التوبيخ.

وهذا النوع من التضمين فى النقائض يسمّى المقابلة أو المؤازاة وهى أن يضع الشاعر الثانى من المعانى الفخرية أو الهجائية ما يناظر ويقابل معانى الشـاعر الأول. (الشايب،

۱۳۷۱ق: ۳۵)

ويتحدث جرير عن حقارة منزل تغلب ومقامهم قائلا:

إنى نفيتــک عــن نجد، فمــا لكم   نجــد وما لــک من غــور به حجر

إذ حدث التناص مع بيت الأخطل:

كــرّوا إلى حرّتيهــم يعمرونهــا   كمــا تكــرّ إلى أوطانهــا البقــر

ويعرّض الأخطل فى هذا البيت بمقام القيسيين مشيرا إلى أن هؤلاء بعد أن انهزموا فى احتلال مواقع تغلب رجعوا إلى أرضهم القاحلة التى تكثر فيها الحجارة السود. وشبّههم فى رجوعهــم إلى ديارهــم بالبقر، ثمّ امتص جرير المعنى وقــال إنه طرد الأخطل وقومه عن المواقع الخصبة إلى المواقع الوعرة والجدباء وهم لايمتلكون شيئاً عن تلك المواقع.

وقال جرير فى قدرتهم وصلابتهم:

إنّــا وأمّــک مــا تُرجــى ظلامتنا   عند الحفاظ ومــا فى عظمنا خور

ويستحضر هذا البيت فى الذهن البيت التالى للأخطل:

لايســتقلّ ذوو الأضغــان حربهم   ولايبــين فى عيدانهــم خــور

والأخطل هنا استخدم هذا البيت فى مدح بنى أمية وقال لايوجد فيهم ضعف وفتور، وبعده جاء جرير وأخذ المعنى واســتخدمه فى الفخر بأنفســهم، وقال لايعترى صلابتهم وهنٌ.ونرى أن جريراً استخدم نفس القافية التى استخدمها الأخطل.

۲. التناص الشكلى:

إن من يقرأ قصيدة جرير يظهر له بوضوح استخدامه أبيات الأخطل وجمله وكلماته. ونحن فى هذا القســم من هذه الدراســة نريد أن نوضح هذا القسم الذى اعتبره النقاد التناص الشكلى.

أ. *التناص الجملى*: أتى جرير بعدّة جمل من قصيدة الأخطل فى قصيدته، منها:

قال جرير:

قالوا نری الآل یزهی الدوم أو ظعناً یا بعد منظرهـم ذاک الذی نظروا

حیث یتناص الشطر الثانی مع الشطر الثانی من البیت التالی للأخطل:

إذ ینظـرون وهم یجنـون حنظلهم إلی الـزوابی بعـد مـا نظـروا

ونری أن جریراً وظف الشطر الثانی الذی اقتبسه من الأخطل توظیفاً جدیداً ومخالفاً لتوظیفه عند الأخطل، ولکن جریرا اسـتخدمه فی نسـیبه حیث یصف نزوح أحبته، أمّا الأخطل فاسـتخدمه فی الهجاء ویقول بعد أن أهلکت الحرب بنی کلیب وذاقوا مرارتها جعلـوا ینظرون إلی مقامنا ویطمعون فیه ثم یسـخرهم مطمعهـم قائلاً: ما أبعد ما أمّلوا وطمعوا فیه.

وقال جریر فی موضع آخر:

لـولا فـوارس یربوع بـذی نجب ضاق الطریق وأعیا الورد والصدر

إذ اقتبس جریر المصراع الثانی من بیت الأخطل التالی:

ولم یـزل بسـلیم أمـر جاهلهـا حتی تعایـا بها الإیـراد والصدر

ونری فی هذین البیتین أیضا اختلافا فی توظیف الشـطر الثانی وذلک لأن الشـاعر جریرا اسـتخدم الشـطر المقتبس فی الفخر ویقول إن قومه هم الذیـن یدبّرون الأمور ویعلّمون الناس سـبل الإقبال والإدبار.لکن الأخطل هجا به القیسیین بتعبیره أن عمیر بن الحباب هو الذی یقود سلیماً بجهله وأعجزها تدبیر الأمور حتی لاتعلم سبل الإقبال والإدبار.

وهذا النوع من الاقتباس فی النقائض یسـّمی بتوجیه المعنی وهو أن الشـاعر الثانی یقتبس معانی الشـاعر الأول ویفسرها ویوجهها إلی وجهة یراها لصالحه وتؤید موقفه. (الشایب، ۱۳۷۱ق: ۳۵)

قال جریر:

إن الأخیطـل خنزیـر أطـاف به إحدی الدواهی التی تخشی وتنتظر

وأخذ جریر المصراع الثانی برمته من الأخطل حیث یقول:

وقد أصابــت كلاباً مــن عداوتنا إحدى الدواهى التى تخشى وتنتظر

وكون الأخطل نصرانيــاً يعطى جريراً مجالاً لتعيير الأخطل بدينه وهو يغتنم الفرصة ويعــير الأخطــل بنصرانيته فى أبيات كثيرة فى نقائضه مع الأخطــل. وبما أن النصرانيين يســتبيحون أكل لحم الخنزير، شــبّه جرير الأخطل فى هذا البيت بخنزير، واســتعان فى وصف ذاک الخنزير بشعر الأخطل بالإتيان بشطر كامل من شعره.

والأخطــل فى البيت المذكور مزج هجاءه بالفخر بالقــول إن قومه هم الذين أوقعوا كلابا قوم جرير فى مصيبة عظيمة يخافها الناس ويتحسبون لوقوعها. فهجاء الأخطل فى هذا البيت هجاء قومى أى هجا قوم جرير، أمّا هجاء جرير فشخصى أى هجا الأخطل نفسه دون قومه.

وتجــدر الإشــارة إلى أن هجاء الأخطل فى هذه القصيدة كلــه هجاء القوم لأنه نظم هذه القصيدة فى عبدالملک بن مروان، فهذه القصيدة قصيدة مدحية. كما جاء فى الكتب التاريخية أن الأخطل لقّب بشــاعر بنى أميــة. (الفاخورى، ١٤٢٧ق: ٤٦٦) وهذا اللقب بســبب مدحــه الخلفاء الأمويين والدفــاع عنهم أمام أعدائهم وهجوهــم. وهو فى هذه القصيــدة يهجو القيســيين والكلبيين – وهم مــن حلفاء الزبيريين – بســبب الصراع السياسى الذى كان قائما بين الحزبين الأموى والزبيرى، فهجاؤه سياسى وحزبى وليس شــخصياً.أمّا هجاء جرير فشخصى وقومى لأن مقامه يختلف عن مقام الأخطل وإنّما هو فى مقام الرّد.

قال جرير:

الآكلــون خبيــث الــزاد وحدهم والنازلــون إذا واراهــم الخمــر

وقال أيضا:

الظاعنون علــى العمياء إن ظعنوا والســائلون بظهر الغيب ما الخبر

وهذا جرير أخذ الشــطر الأول من البيت الأول والشطر الثانى من البيت الثانى من البيت التالى للأخطل:

الآكلــون خبيــث الــزاد وحدهم والســائلون بظهر الغيب ما الخبر

وهذا النوع من التضمین فی النقائض یسـّمی بالقلب وهو أن «یقول الشـاعر الأول هاجیاً فیردّ علیه الثانی قالباً علیه معانیه ذاتها مدّعیاً أنّها من صفات الأول أو رهطه.» (الشایب، ۱۳۷۱ق: ۳۵)

ب. *التناص مع کلمة واحدة*: تزاحم فی قصیدة جریر حشد کبیر من المفردات التی اسـتخدمها الأخطل فی قصیدته، وهذا الاسـتخدام بعض الأحیان صدفة وغیر مقصود ولکن فی کثیر من الأحیان واع ومقصود ولیس اعتباطیا أو صدفة.

وهنـا نذکر علی سـبیل المثال عدّة کلمات اسـتخدمها جریر فی شـعره ونجدها فی شـعر الأخطل أیضا، لکن اسـتخدامها صدفة ولیس متعمدا، وهی: الشوق، والمناکب، والأرض، والناس و... .

ینشد جریر:

قل للدیار سـقی أطلالـک المطر ‏ ‏ ‏ قد هجت شـوقاً ومـا تنفع الذکر

وینشد الأخطل:

شـوقاً إلیهم ووجداً یـوم أتبعهم ‏ ‏ ‏ طـرفی ومنهـم بجنبی کوکـب زمر

کما ینشد جریر فی موضع آخر:

بزل کأن الکحیل الصرف ضرّجها ‏ ‏ ‏ حیث المناکب یلقی رجعها القصر

والأخطل کان قد أنشد:

حثّـوا المطـی فولّتنـا المناکـب ‏ ‏ ‏ وفی الخـدور إذا باغمتهـا صـور

وهذا جریر یقول:

أحیاؤهـم شـر أحیـاء وألأمـه ‏ ‏ ‏ والأرض تلفـظ موتاهم إذا قبروا

ولکن الأخطل قال:

حتی هبطـن من الـوادی لغضبته ‏ ‏ ‏ أرضاً تحـّل بهـا شـیبان أو غبر

ثم قال جریر فی مقام آخر:

نرضى عن الله أن الناس قد علموا   أن لايفاخرنـا مـن خلقـه بشـر

بينما الأخطل كان قد قال:

شمس العـداوة حتى يسـتقاد لهم   وأعظم النـاس أحلاماً إذا قدروا

وأمـا الكلمات التى تضمنتهـا قصيدة جرير وأيضا توجد عنـد الأخطل وتضمينها واع وعن عمد، فهى: المطر، والظفر، ويسـروا، وكدر، ونصروا، وعمياء، وبئس، والسكر، ومضر، السوءات، وكفروا، وأثر، وبشر.

جرير:

إن الهذيـل بـذى بهـدى تداركه   ليـث إذا شـدّ من نجداتـه الظفر

الأخطل:

إلى امـرئ لاتعدينـا نوافلـه   أظفـره الله فليهنـئ لـه الظفر

جرير:

والمقرعين على الخنزير ميسـرهم   بئس الجزور وبئس القوم إذا يسروا

الأخطل:

ولم يـزل بـک واشـيهم ومكرهم   حتى أشاطوا بغيب لحم من يسروا

جرير:

نحن اجتبينا حياض المجد مترعة   مـن حومة لم يخالـط صفوها كدر

الأخطل:

بـنى أميـة نعماكـم مجللة   تمت فلا فيهـا منّة ولا كدر

جرير:

أعطوا الخزيمـة والأنصار حكمهم   والله عـزز بالأنصار مـن نصروا

الأخطل:

بــنى أمية ناضلــت دونكم　　　أبناءقومهمآوواوهمنصروا

جرير:

الظاعنون علــى العمياء إن ظعنوا　　　والســائلون بظهر الغيب ما الخبر

الأخطل:

مخلّفــون ويقضــى النــاس أمرهم　　　وهم بغيــب فى عمياء ما شــعروا

جرير:

والمقرعين على الخنزير ميســرهم　　　بئس الجزور وبئس القوم إذا يسروا

وأيضا جرير:

مــن كل مخضــرّة الأنيــاب قعّرها　　　لحم الخنانيص يغلى فوقه الســكر

الأخطل:

بئس الصحاة وبئس الشرب شربهم　　　إذا جــرى فيهــم المزاء والســكر

جرير:

موتــوا مــن الغيــظ فى جزيرتكم　　　لم يقطعــوا بطــن واد دونــه مضر

الأخطل:

قــوم أنابــت إليهــم كل مخزيــة　　　وكل فاحشــة ســبت بهــا مضــر

جرير:

هلا سكتم فيخفى بعض سوءاتكم　　　إذ لا يغــير فى قتلاكــم غــير

الأخطل:

على العيارات هداجون قد بلغت　　　نجــران أو حدثت ســوءاتهم هجر

جرير:

فأحمــد الله حمــداً لا شــريک له　　　إذ لا يعادلنــا مــن خلقــه بشــر

الأخطل:

ولا الضباب إذا اخضرّت عيونهم　　　ولا عصيــة إلا أنهــم بشــر

جرير:

جاء الرسول بدين الحق فانتكثوا　　　وهــل يضير رســول الله أن كفروا

الأخطل:

وقيــس عيــلان أقبلــوا رقصــاً　　　فبايعــوک جهــاراً بعدمــا كفروا

جرير:

كانــت وقائــع قلنا لن تــرى أبداً　　　مــن تغلب بعدهــا عــين ولا أثر

الأخطل:

يعرّفونــک رأس ابن الحباب وقد　　　أضحى وللســيف فى خيشومه أثر

أخــذ جرير كما رأينا كثيرا من الكلمات المســتعملة فى القافية من قصيدة الأخطل واســتعملها فى نفس الموضع. وفى بعض الكلمات اختلاف فى التوظيف عند الشاعرين، فمثلا اســتخدم الأخطل كلمة "الظفــر" فى قافية البيت الذى مدح بــه الخليفة الأموية ولكن جريرا اســتخدمها فى البيت الذى افتخر فيه بفوارسهم، أو كلمة "بشر" استعملها الأخطــل فى الهجاء ولكن جريرا اســتعمل نفــس الكلمة فى الفخــر. وفى بعض الأخر لايوجد اختلاف فى التوظيف، ككلمة "السكر" إذ وظفها كلا الشاعرين فى الهجاء.

النتيجة

كانت تقنية التناص الأدبى واضحة فى قصيدة جرير كما لاحظنا حيث نرى فى بعض الأحيان أن القارئ حينما يقرأ بيتا أو عبارة من قصيدة جرير يتبادر فى ذهنه على الفور قصيدة الأخطل، وسبب هذا الوضوح وهذا الخطور السريع يعود إلى:

– تضمين جرير المعانى المتعددة فى أغراضه الشعرية، التى أخذها عن الأخطل.
– اســتحضار الأشــطر العديدة والعبارات المتعددة فى قصيدته من قصيدة الأخطل. واستحضار بعضها دون النقصان أو الزيادة وبعض الأخر مع النقصان أو الزيادة.
– اســتخدام حشــد كبير من كلمات قصيدة الأخطل مع التغيــير فى توظيف بعضها وعدم التغيير فى بعض الأخر.

والتناص فى قصيدة جرير كان واعيا ومقصودا إلا فى بعض الأحيان.

المصادر والمراجع

أبوتمام. ٢٠٠٢م. نقائض جرير والأخطل. شرح وتحقيق: محمد نبيل طريفى. بيروت: دار صادر.

أحمد فرج، حســام. ٢٠٠٣م. *نظرية علم النص رؤية منهجية فى بناء النص النثرى*. تقديم: سليمان عطار ومحمود فهمى حجازى. القاهرة: مكتبة الآداب.

بينس، محمد. ١٩٩٨م. حداثة السؤال. الطبعة الثانية. بيروت: المركز الثقافى العربى.

الخطيب، رحاب. ٢٠٠٥م. معراج الشــاعر مقاربة أســلوبية لشعر طاهر رياض. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

الشايب، أحمد. ١٣٧١ق. تاريخ النقائض العربية. الطبعة الثانية. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

عــزّام، محمــد. ٢٠٠١م. النص الغائب تجليات التناص فى الشــعر العربى. دمشــق: اتحاد الكتاب العرب.

الفاخورى، حنّا. ١٤٢٧ق. تاريخ الأدب العربى. قم: منشورات ذوى القربى.

محمد شبل، عزّة. ٢٠٠٩م. علم لغة النص النظرية والتطبيق. القاهرة: مكتبة الآداب.

مفتاح، محمد. ١٩٩٢م. تحليل الخطاب الشــعرى (اســتراتيجية التنــاص). الطبعة الثالثة. بيروت: المركز الثقافى العربى.

المناصــرة، عزّ الديــن. ٢٠٠٦م. علم التناص المقارن نحو منهج عنكبوتى تفاعلى. الأردن: دار مجد لاوى للنشر والطباعة.